ينبغى أن يكون فى عقله ، ويكون النصف الآخر فى البنك . . .

* * *

عند ما تكونُ الساعةُ هى ساعةَ انتظار الشئ المحبوب ، يكون قلبُ المنتظِر من زَحْمةِ الدقائق كالذى يشُقُّ طريقاً زَاحَمَهُ الناسُ فيه

* * *

الذليل فى رأى الحب مَن إذا هجرته المرأةُ كان هجرُها إياه عقوبتَه ، والعزيزُ فى رأى الحبِّ من إذا هجرته المرأةُ كان هجرُها إياه عقوبتَها

* * *

اليومُ الذى يكونُ قلبياً مَحْضاً يبقى له دائماً باقٍ لا ينتهى ؛ ولهذا لا يزالُ الحبُّ الطاهرُ كأنه فى بقيةٍ من أوله بهما تَقَادَم

* * *

لا يعرفُ الطفلُ تاريخَه من الزمن ومافيه ، ولكن من بيت أهله ومَن فيه ؛ فأمسِ واليومُ وغدا هى كلُّها عنده أمسِ الذى يكبَرُ شيئاً فشيئاً . . . ابنُ الطفولة إنما هو ابنُ حالةٍ من حالات الحياة لا ابنُ زمن ، وهذا سرُّ السعادة

* * *

يالها عجيبة ! إن الصوفىَّ إذا فاز فى حبه الإلهى رأى نفسَه باقياً فى الزمن بلا بقاءٍ يَعْلَمُهُ ، وفانياً عن الزمن بلا فَناءٍ يشعرُ به ؛ وذلك بعينه ما يراه العاشقُ إذا خاب فى حبه الانسانى . . .

* * *

الفرقُ بين كاتبٍ مُتَصَنِّعٍ وبين كاتب مُتَعَمِّرٍ أن الأول مُثْقَلٌ بواجب ، والآخر مُثْقَلٌ به ذلك الواجب . . .

* * *

كانت الشفقةُ هى الأصلَ فى كل موضع استهزاءٍ فما تستهزئُ إلا بخطإٍ أو ضعفٍ أو عجز ؛ ولكن شعورَ الحيوان بقدرته على حيوان آخر ، أو بانتصاره ، أو بامتيازه ؛ هو فى الانسان أصلُ ذلك الاستهزاء

* * *

كما يضرُّ أهلُ الشر غيرَهم إذا عملوا الشر ، يضرُّ أهلُ الخير غيرهم إذا لم يعملوا الخير

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

الدعوة الى القصص

علام تقوم وماذا انتجت ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يجوز الأدب العربى اليوم حركة تطور وتجديد لاريب فى قوتها وأهميتها ؛ والحركات الفكرية ، كالحركات السياسية ، عرضة للأغراق والتطرف ، ولاسيما قبل أن تبلغ مرحلة النضج والاستقرار ؛ وقد كانت حركتنا الأدبية عرضة لبعض هذه المظاهر المتطرفة ؛ فقد أفرط البعض مثلاً فى التحدث عن الجديد والقديم دون أن يسفر هذا الجدل الخالد عن معان واضحة أو نتائج عملية ؛ وقد زعم البعض أن التجديد هو إغفال الماضى كله ، والسير وراء التفكير الغربى فى حركة تقليد عمياء ؛ وظهرت فى الأعوام الأخيرة فى حركتنا الأدبية خاصة تطرف أخرى ، هى الأغراق فى التحدث عن القصة وكتابة القصة ، وفى تقدير المكانة التى يجب أن يتبوأها القصص فى أدبنا ؛ ويذهب بعض أصحاب هذا الحديث الى أن القصص هو أعظم وأجل وأقيم ما فى الأدب الغربى ، فيجب أن يكون له مثل هذه المكانة فى أدبنا ، ويجب أن ينصرف الكتاب الى تأليف القصة حتى يصبح لنا تراث قصصى عريض مثلما فى الأدب الغربى

وهذا قول يحتاج الى بيان ومناقشة . نعم إن القصص يتبوأ فى الآداب الغربية الحديثة أسمى مكانة ؛ ولكنه ليس كل شىء فى هذه الآداب ، وليس هو أعظم شىء فيها ؛ وإنما يتخذ القصص هذه المكانة فى آداب عظيمة تفتحت فيها جميع نواحى التفكير والفن ونضجت ، واتصلت مراحل نموها وتطورها مدى عصور . وللقصص الرفيع فى هذه الحضارات والآداب العظيمة مهمة سامية أخرى غير متاع القراءة والرياضة العقلية ، هى المعاونة فى تربية النشء وتكوينه ، وتكوين الأخلاق والخلال الفاضلة ، والدعوة الى المثل العليا . والقصص يتخذ أداة للتعبير عن خفايا النفس البشرية ، وصياغة العواطف النبيلة والعبر المؤثرة ، كما يتخذ أداة لعرض ما فى اللغة القومية من كنوز البيان الساحر . وإنا لنتساءل

أولاً : هل يفهم القصص لو أدبنا على هذا النحو ؟ وهل استطعنا بعد كل هذا الضجيج أن نخرج فى ميدان القصص ما يمكن أن يرتفع ، فى فنه وفى قيمته الأدبية ، الى هذا المستوى ؟ وهل نضجت حركتنا الأدبية واستكملت كل ما ينقصها من النواحى والعناصر التى يجب أن تمثل فى كل الآداب العظيمة فلم يبق أمامنا إلا أن نعالج القصص وأن نحسنه ؟

إن القصص لم يتبوأ مكانته الرفيعة فى الآداب الغربية إلا فى العصر الحديث حينما ازدهرت هـــذه الآداب ، واستكملت عناصرها الجوهرية . نعم إن القصص وجد فى الآداب القديمة منذ أقدم العصور ؛ ولكنه لم يشغل فى الآداب القديمة ذلك الفراغ الشاسع الذى يشغله فى الآداب الحديثة ، وقد كان فوق ذلك من نوع خاص ، قصصاً دينياً أو قصص بطولة أو فروسة قومية ، ولم يخرج قصص العصور الوسطى فى الآداب الغربية عن هذه الدائرة . ولنا مثل هذا القصص فى أدبنا العربى القديم ؛ ولكن الحركة الفكرية اضمحلت فى الشرق فى الوقت الذى نهضت فيه فى الغرب وأخذت تتفتح فى سائر النواحى وتنمو بخطى عظيمة ؛ وبينما كانت الآداب الغربية تغزو ميادين جديدة ، منها ميدان القصص ، اذا بالحضارة الأسلامية والآداب العربية تخبو وتتراجع أمام الغزوات البربرية التى قام بها التتار والترك فى سائر أنحاء العالم الأسلامى ؛ ولما افتتح الترك مصر ، وهى يومئذ ملاذ التفكير الأسلامى ، لفيت الآداب العربية ضربتها القاضية ، وركدت ريحها زهاء ثلاثة قرون ، وتخلفت عن الآداب الغربية فى كل نواحى التقدم ؛ ولم تستطع أن تنهض من سباتها الطويل إلا بعد أن تقلص عنها ظل هذا النير البربرى

وما نراه اليوم من نقص فى نواحى حركتنا الفكرية ، إنما هو من أثر هذا الاضطهاد الذى أصابها مدى هذه الأحقاب الطويلة ؛ والقصص إحدى هذه النواحى ، بيد أنه ليس أهمها وأحقها بالعناية ؛ فهنالك نواح أخرى فى أدبنا لم تنضج ولم تستقر ، وهنالك فى ميادين العلوم والفنون نقص واضح ، والقصص الرفيع عنوان حركات فكرية نضجت واستقرت وازدهرت فيها مختلف نواحى الثقافة والفنون . وقد يظهر القصص فى آداب أمم وحضارات متأخرة ، ولكنه يكون قصصاً ساذجاً تنقصه عناصر الفن والتفكير . وإذا كان من المسلم به أن حركتنا الفكرية لا زالت بحاجة الى استكمال كثير من العناصر الجوهرية ، فليس مما يقويها ويدعمها ، أن تنصرف الى نواح دون أخرى ، وأن نؤثر بعض هذه النواحى بالأهمية والخطورة ، وأن نصورها خلاصة الفن والأدب ، وكل شىء فيهما ، على نحو ما يصور البعض كتابة القصص ، فمثل هذا الأغراق لا يخدم قضية الأدب والثقافة ؛ ولكنه بالعكس يجنى عليها اذا أثمر ثمره فى الأذهان والأقلام الناشئة . وهذا ما يلوح لنا أنه يحدث اليوم فى حركتنا الأدبية ؛ فقد ذهب أصحاب الدعوة الى القصص فى تصوير أهميته وقيمته الأدبية الى حدود بعيدة ، وتأثر بهذه الدعوة المغرقة كثير من الشباب الذين لم يستكملوا كل عناصر الثقافة القوية ، فانصرفوا الى قراءة القصص والى كتابته ، حتى أصبحنا أمام سيل من القصص الساذج الفث يشغل وقت الشباب والناشئين

* * *

والآن لنر ماذا كانت نتائج هذه الدعوة ، وهل أسفرت حقاً من الوجهة الأدبية عن نتائج تذكر . وأول ما يلفت النظر هو كثرة القصص التى تغمر الصحف والمجلات . ولكن الكمية ليست هى كل ما فى الانتاج الأدبى ، وإنما يهم النوع قبل كل شىء ؛ ومن الزعم الباطل أن يقال إننا استطعنا أن نخرج حتى اليوم آثاراً قصصية ترتفع فى قيمتها الأدبية والفنية الى مستوى القصص الغربى ؛ وقد نظفر بآثار قليلة تمتاز بشىء من القوة والطرافة ، ولكنها مع ذلك تحمل طابع المجهود الأول ، وينقصها كثير من العناصر الفنية ؛ أما الكثرة الساحقة من هـــذا القصص الذى يغمر اليوم ميدان أدبنا ، فليست لها أية قيمة أدبية تذكر ؛ ويلاحظ أولاً أن كثيرا من القصص الذى يبدو فى ثوب التأليف إنما هو قصص منقول عن الأدب الغربى ، يصاغ فى أثواب مصرية لكى تضيع معالمه ، ولكنه ينم دائما على حقيقته ؛ ولا نلمس فى هـذا القصص الناشىء أية لمحة من الفن الحقيقى أو الخيال الشائق ؛ ثم هو لا يكاد يحظى بأى قسط من البيان القوى ، بل يعرض دائماً فى أساليب ضعيفة ينقصها روح التعبير القوى ، ويبدو فيها أثر التقليد والنقل واضحاً ؛ ولسنا ندرى ماذا تكون القيمة الأدبية لقصص عاطل عن مزايا الفن والخيال

والبيان معاً ، وكل ما فيه أنه قصص فقط ؛ أضف إلى ذلك أن هذا السيل المتصل من القصص ينقصه عنصر التوجيه والثقافة ، فهو لا يتجه إلى غاية ثقافية معينة ، ولا تحدوه أية مثل اجتماعية ، أو أخلاقية محترمة

ولقد قام القصص الغربي في معظم الأحيان على تراث التاريخ والحضارة ، وما زال في كل أمة ممرضاً قوياً للتاريخ القومي والحياة الاجتماعية القومية ، ولكن ما هي المواد التي يستقي منها كتاب « القصص » عندنا ؟ وأي نواح من حياتنا الاجتماعية أو تاريخنا القومي استطاعوا أن يعرضوه ؟ إنهم في الواقع يعرضون صوراً باهتة من الحياة الاجتماعية الغربية ، ويحاولون أن ينسبوها للحياة الاجتماعية المصرية . ذلك لأنهم مقلدون ناقلون في الغالب ، ينبذفعون وراء نزعة لم تقم على الدرس الصحيح ؛ وهل قصص الحب المبتذل ، ومناظر المسارح واللاهي والمراقص ، ومقابلات السينما والشاطئ (البلاج) ، والمراسلات الغرامية السخيفة ، هي كل ما في الحياة الاجتماعية المصرية ؟ ولقد كان لنا ثمة مادة بديعة للقصص في تاريخنا القومي ، فهو حافل بصنوف المآسي الملوكية والشعبية ، والحوادث والمواقف الشائقة ؛ فهل فطن أحد من كتاب القصص إلى هذا الكنز الزاخر والمورد الخصب ؟

ولقد قلنا إنهم يزعمون أن الرجوع إلى الماضي ينافي دعوة « التجديد » التي يضجون بها ، ولا يستطيعون فهمها أو تحديد معانيها ؛ فهم لذلك لا يعنون بالتنقيب في تراثنا الغابر ؛ ولكن الواقع أنهم لا يفعلون ذلك تعففاً أو قصداً وإنما هو القصور وانقطاع الصلة الروحية لديهم بين مراحل الأدب الذين يزعمون أنهم طلائعه . والبحث يجشمهم جهوداً لا يستطيعون الاضطلاع بها . على أن القصص الرفيع في الآداب الغربية يفسح أكبر مجال لمآسي التاريخ وحوادثه . ويكفي أن نذكر بعض الأسماء لتأييد هذه الحقيقة ، فقد كان التاريخ وحده تقريباً مادة شيللر في جميع قصصه المسرحية ؛ وكان أروع ما أخرجه سنكيفتش قصته التاريخية الرومانية « كوفاديس » التي تعتبر من أعظم ما أخرج القصص الغربي ؛ وكتب لورد ليتون « أيام بامبيای الأخيرة » ، وكتبت جورج اليوت « روموﻻ » ، وعرض اسكندر ديما مراحل التاريخ الفرنسي في سلسلة من القصص التاريخية البديعة . بل لقد ألفى بعض أكابر كتاب الغرب في تاريخنا ، وفي التاريخ الاسلامي مادة نفيسة ؛ فكتب تشارلس كنجسلي « هيباسيا » عن العصر اليوناني الروماني في مصر ، وكتب اسكوت « ايفانهو » عن بعض حوادث الحروب الصليبية ، وصاغ فون هامار ولاهارب مصرع البرامكة في قالب قصصي بديع ، وكتب شاتوبريان « آخر بني سراج » إلى غير ذلك مما يضيق المقام بذكره

والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه الدعوة الصاخبة إلى كتابة القصص واعتباره كل ما في الأدب من قيم ونفيس ، وتأملنا ما انتهت إليه من النتائج العملية ، ألفينا فراغاً في كل ناحية ، وألفينا فشلاً مطبقاً . والفشل دائماً حليف كل نزعة أو حركة لا تقوم على قواعد صحيحة ، ولا تتوسل إلى غاياتها بالوسائل الطبيعية ؛ وقد فشلت هذه الحركة المفرقة ، لأنها قصدت أن تبتدئ حيث يجب الانتهاء ، ولم تسر في مراحل التدرج ؛ جنباً إلى جنب مع باقي نواحي الحركة الأدبية ؛ ولم تقم بالأخص على الدرس والبحث ، وإنما قامت على عوامل وبواعث مصطنعة . أراد فريق من كتابنا أن يصبحوا بين الأمس واليوم من أساتذة القصص ، وأن يناهضوا كتاب القصص الغربيين الذين كونتهم حضارة وآداب وثقافات مؤتلة متصلة المراحل ، وتصوروا أنهم يستطيعون تحقيق هذه الغاية باخراج هذه القطع الركيكة الذابلة التي تنقصها كل عناصر الفن والخيال والبيان

ونحن نقدر قيمة القصص ورفيع مكانته في الأدب الغربي ، ولكنا نود فقط أن نعرض الأمور على حقيقتها ، وأن نلفت النظر إلى ما يترتب على هذا الأغراق في شأن القصص من الآثار السيئة في حركتنا الأدبية ، وهي لم تستكمل بعد كل عناصر النضج والاستقرار . ولقد كان الاندفاع في هذا التيار على هذا النحو من وجوه الضعف في حركتنا الأدبية ؛ لأنه يستغرق جهوداً كان خليقاً أن تصرف في نواح أخرى ؛ ولقد كان الجهد كبيراً مستفيضاً ، ولكن دون تبصر وتمكن ، فجاء الغنم ضئيلاً يدعو إلى الرثاء . ومن المبالغة أن نقول إننا قد استطعنا أن نفزو بعد ميدان القصص الرفيع ، أو إننا أخرجنا تراثاً قصصياً يجدر بالتقدير والاحترام .

محمد عبد الله عنان

المحامي